

جوهرة من وحل مرصعة بالطين

تيليات

٥

معا
إلى الأبد
في نعيم
الجسيم

وماها من غيان وغيان وقليلة وزرعة وزرعة ودندبة . سوف ترى كل ليلاته الفكرية ، وندائه الفجائية ، وتناقلاته العنيد والآام آسائه ومفاصله ، ويزلاجه العويذ . وإسهاله الصبي والشوى . وحطته الزرقعة لغازلي الخافلة ، وشهوته الحسية التي تصل إلى حد الشق . وأحلامه الحسية وعلاقاته الحسية بالفلاحات والغبنيات العجريات ونساء الطيفه الأرسطراطية . فهذه هي هذبة زفافه . لا جوهرة من لؤلؤ أو ماس ، إنما جوهرة هو بوحله وطنيه ورواحه الكريمة . وإن لم نسد أنفها فهذا يعنى أنها زوجة الدهر وتفاحة العمر . ومعها سوف نجد أمه يوده . ويومه غده .

ولون تولستوى كان الحق يقال اسما على معنى . فاسم «ليون» لاتبى الأصل . وكلمة «ليو» باللاتينية معنى «الأسد» . و«تولستوى» اسم روسى معنى «الكبير الضخم الحسى» . أى الغلظ الحنة . أى بالعربية «العفسر» . وشجاعة الأسد العفسر العفسر المهيم . المقدم على أهوال الزواج . أعطى تولستوى كرايس يرمائه إلى سوبا

● زاهد ولكن فاسق !

وامضت سوبيا الليل بأكملة في فرائدها . واحمرت واحضرت . والزرقت واصفرت وهي ممدودة . فمن صفحة إلى صفحة رأته صورة عريسها تحط تحت بصرها ول غيبها . فحياها نفس السوداء لو قرأتها أنى الغرب شاب شعرها . ولو قرأتها عجوز شطاء محضرة وبحكة لسقطت أوراق رأسها البيضاء وصلمت . وسوبيا عذراء في الثامنة عشرة . ولم تر من الحياة سوى وجهها المضى . ونحل كل شئ عن وجهها الآخر للظلم

إياها لأنهم هذا الرجل العجيب الغريب . إن القليلة صديقه الصدوق . والذيلة عدونه اللدود . هذا ما يولده ويكنه . ومع ذلك فهو فجأة يخاضم القليلة . ويحاربها . ويطارز الذيلة ويناسبها . ثم فجأة يهادن القليلة ويصالحها . ويعادى الذيلة ويمازينا . ونفس الشئ بالنسبة لساير الأشياء في جميع الحالات الدنيوية والأخروية السياسية والأدبية والفلسفية والعرامية . فهو الزاهد الفاسق . الناسك الشهوان . الطيب الشرير الكريم القتم

القوى الضعيف . الشجاع الخيان . الغرور المتواضع . فهو التافس بعينه إلا أنه يمشى على رجلين . والأعداد بعينها إلا أنه يمشى بلسان وفلم وشفتين . فهو في يوم يتحمس للذهب الرواقين . ويرى ملهم أن الحياة حرب بين العقل والشهوات ولا تتحقق القليلة إلا بتغلب العقل . عندئذ فقط تنود الطمأنينة النفس . ويصفو القلب ويعانق الحب تخاضع الإنسان وتغمره العدالة وتنقل إلى الناس . ثم الدولة . ثم العالم أجمع . ويعيش البشرية في حب وعدل وسعادة . ويلقى الأسد الفيلسوف عزيمته ويعد عن الذيلة ولذة الخواص . صام عن كل ماله وطاب وعاش على العدى وثناء . وعلع قبضه وسند ظهره على ووضع يديه فوق نار الدفأة ليشرها ويحصدنها . ثم عرشها للرد ورمعها في الخلد . ليزداد الله فيحمله بصلابة ويروحه بشجاعة . فالشهوات لا تظهر إلا بالنار ولا تنهر إلا بالخلد . فهذه هي فلسفة بيون الروسى !

ثم بعد أسوع جذبته مذهب الأيقورين . فعزائل من الممكن أن يرووه فجأة ويخطئه . وبما أن الفاسد محبوس وإياه على الأرض

في المرأة الحقيقية تأمل حقيقته . وروعه مآرأه . وبدقة وأمانة سجله . وعين الشمس شاهدة على صدق ماكتبه . فهو لم يقل أبدا لنفسه : يا عبي أنت على عبي . بل قلأ عينه بعينه . ودم نفسه بنفسه . فهو أسد ورد . والأسد سع . و«السع» هو الشجاع . و«الشجاع» نوع من الحيات . و«الحية» شجاع القليلة . وتولستوى كان حقا واحقا شجاعا في الشجمان وحية ذكرا في قبلة الرجال . فأمام عروسه لم يلمع عينيه بالنجوم . إنما عمدا وعمد عن لطم نفسه بالوحل والطين . والأعمال بالنيات ومن قال الحق صدق . ومن عمل به وفق



وصحبه . كما ذكرت في الأسوع الماضي

● تحت المراقع سم نافع !

وتولستوى منذ فجر شباه وهو يكتب يرمائه بصدق مايعنده صدق . فهو مولع بنفسه بقدر ما هو مولع بالحقيقة . ولقلمه شاهد عيان وبيان . وأدواره مرآة نفسه . والمرآة لا تكذب . ولقلمه أيضا . ليويمائه مصفولة كالسجنجل وتعكس بجلاء ووضوح صورة نفسه القائمة الأعماق . السوداء التواشى . إن سوبيا أرادت أن تصوره في شخصية دوليتسكى الدمع الوجه . سوف يربها هو أن ذات ونفس دوليتسكى أفتح بكثير من وجهه ومظهره . سوف يعطينا يرمائه . لمن واجه قلب رفع سنار مسرحية الزواج أن يسقط التبرق والحجاب ويكشف لنا عن وجهه الخلق . فتحت المراقع سم نافع . ومن حقلها أن تعرف دقائقه وأسراره وحفاهه . سوف . ترى بعينها التجلا وبين أعماق شدة

في عام ١٨٦٢ أحد الكونت ليون تولستوى (٣٤ سنة) يردد على أسرة الدكتور هيرز فالطبيب له ثلاث بنات في عمر وجاهل الورد : ليزا (٢٠ سنة) . وسوبيا (١٨ سنة) . وتانيا (١٦ سنة) . والكونت يرغب في الزواج ويبرهه . ول أول الأمر فكر في الزواج من ليزا . ثم غير رأيه . فسوبيا تعجبه أكثر . ونظرة فكلمة هام في حبا . واحترار قلبه وتردد . فالزواج قيود وكلايب . فتح قلبه ووعوع . فهو يعبأ بجنون . فالتى بنفسه في النار وحطيا . وأصر على أن يبر غلد الثران يوم ٢٣ سبتمبر . أى أسبوع واحد فقط بعد الخطبة . فهو كاتى مذهب بمجرد أن يتخذ قرارا بصر على تفهده على الفور . وتولستوى على يقين من حب سوبيا له . رغم مظهره الدمع وفارق السن الكبير بينها . فهكذا قالت له عن طريق قصتها القصيرة إلى أخته فيها «دوليتسكى» . ولكن أن أحب شئ وأن أتزوج شئ آخر . ومن شدة ولعه بالحقيقة قرر أن يكشف لنا عن حقيقة شدة

معدودة . فلأبد أن يعيش ويتنفس ويستمتع بكل لحظة من يومه
ولأبداً بالعدل . فلهذا الإنسان بلوغ السعادة . والسعادة ثم
باللذة . فهي قلمه وكركسه وكريامه . واتعمق في اللذات
وأكل كالغول . وشرب حتى التخلل . وفي يرقص مع
العجريات . ولزكت له ليلة حب حمراء . ذكرى أجيال طرحت
في القفاز لمدة ثلاثة أسابيع . وكلفه الحداجم داح قلبه . فزار
أبيوه يومين في الطير وعلى نفسه . وفي لحظة طيان طلب
من الله أن يرحم له في الله والتمسعة له وجوده بمعجزة . ولما لم
يستجب له الله . أعلن كبره والحاد .

لاحق رأسه ليحمي عينيه . ثم دفعها بكل قوته برأسه ويديه . وبنت الدبة من قوته . وحافظت على حياتها وشمرت ذيلها . وهربت إلى العاية فلم يعقها . وبعد يومين تربع لها في العاية . وسبح دمه فوق الخليل . وصلح جلدها ثم استخدمه كسجادة في حجرة مكنته . ولكن فراء الدبة كان كلما نظر إلى وجهه يصحك في سره وروبه . فلذت أنيابها رحمة الله عليها بصمتين في منتهى الروعة والجمال على وجهه الدمع .

ولكن قاتل الدبة الشجاع كان إذا تعرض لأية مضايقة تافهة هائلة يصاب بضيق في الرأس . وتقلصات في المعدة . ومغص في البطن وإسهال . فلدت يوم وهو في القوقاز . احتق كليه بولكا . ومن شدة حوله وجزع عليه ارتفعت حرارته درجتين . وأصيب بتزيف في أنفه . ولما عاد بولكا . بعد يومين انخفضت حرارته وتوقف نزف الله . وفات على العصفير أن طيرا في السماء اسمه عصفور يجمع الأشكال على بعضها . فإذا كان هو زير نساء . فكليه أيضا زير كتابات . فالكلب وكأله من نفس الطينة الذئبية .

ولطمت سونيا على خدودها . وكادت تنشق فيص نومها لولا أن يدها اليمنى تدخلت . وقبضت على يدها اليسرى وأسرتها في راحتيها . وأمرت سونيا بالهدوء . ومواصلة اكتشاف حبايا غريبها .

باله من جلف انالى قاس جاف . أقلبه من صخر جلود . ! . ياليتني يكنى بامرأة واحدة إنما هو يجمع النساء كما يجرى . البعض جمع القراش . بل هو بعينه فرائشة . وكالفراشة ينقل من زهرة إلى زهرة . ويكتب في يومياته . 4 ديسمبر ١٨٥٧ . الكونتيسة أوبولسكي تفعل في ما تشاء . وأنا راض . إنها تعزى أكثر من أية امرأة أخرى . إنني أحبها إلى حد أنسى وجودها وأحرس وأبذل كالآلهة . ولكن العاشق الأخرس الآلهة تنطق قلعه وتكتب في نفس اليوم . كاترين ابنة الشاعر يوبونت فتاة طريفة إلى حد أنى بدأت أعجب بها . وربما فكرت في الزواج منها . . . ثم بعد شهر كتب . ٧ يناير ١٨٥٨ . كاترين طريفة جدا جدا . . . ثم ٨ يناير . يبدو أنى أحب كاترين فصورتها لا تغارق عيالي . ثم ٩ يناير . كلام فارغ ! لا أحبها إنما أرغب فقط في حبها . ثم ٢٦ يناير . كاترين باردة ومتعجرفة ودميمة . ولكن ليس من الأفضل أن أتزوج فتاة لا أحبها . . . ثم ٢٨ يناير . أحب الأميرة لوفوف . ولكن هل من الممكن أن نحس فتاة مثلها ؟ أن نتفكك من وجهي الدمع لأوبدنت لها رغبى في الزواج منها ؟ ثم بعد أسبوع . الأميرة لوفوف جميلة ولكن ثقيلة الظل . لم أر منذ زمن طويل امرأة مثل جمال الكونتيسة من . ليلة حمراء . إن العشق لشيء رهيب . . . الفسق أيضا .

● السافل الدون . . . الندل !

ولكن تولستوى في الواقع لا يحب أحدا ولا يهتم بأحد . ولا وقت لديه للتفكير في أحد سوى نفسه . بل إن الآخرين لا يهتمونه إلا من خلال التأثير الذي يحدوه هو عليهم . فهو مشغول ومشغول بنفسه إلى حد الهوس . هو يعشق نفسه بدرجة وسادية ومازوكية . ويتلذذ في تأمل عيوبه وسأوته . ويتلذذ في الألم والتعذب . ويتلفظ إلى نوبح وتأنيب وتوجيه شئ الانتهاءات إلى نفسه . وفي سبيل ذلك يلجأ إلى وسائل التعذيب والتكليف من سب وشتم . ووخز ووكز وضع وضع . ولكم ولطم . وسلاحه قلعه . وميدان معركة عذابه باب خاص في يومياته . يستعمل فيها بقسوة كل نقاط ضعفه . وذات مرة ظل على مدى شهر يحد نفسه بكرايخ الكلمات صفحات وصفحات . يقول . أنا . . . ضعيف الشخصية . عديم الإرادة . مغرور . سلف . جان . كسلان . لئيم . غيبد . كثير الكلام قليل الفعل . متشاكس . فاجر . قاسق . سافل . دون .



مسحط . فظ . غليظ . حاف . حيث . تيم . شوق . حائل . غدار . مزود . متعرج . حثير . مولع . بالكلز . أحرق . منور . نذل . رذل . حالب . حالب . خراس . عواس . فاس . ظالم . كذاب . نى . شديد . التناقض . متبرم . مزعزع . مذذب . متقلب .

وصرخت سونيا : يس ! . يس ! . يس ! . وفات وقعدت . وقعدت وفات . فيوميات غريبها وخباياه السوداء ضربها ضربت الغدوى وقوى . والفترة شديدة جدا جدا هوربا وجوربا وقطنيا وقطنيا وجرعينا ويرجعيا . وجعلها ويرجعيا . وصرعيا وضعفيا . وهدت عيناها لتجدنيا . وانفجرت بانبعيا . وهطلت دموعها . وكانت عتابة الشادر . والفاقت سونيا . وهشرت معها وفكرت . إذا كان مشغولا بنفسه إلى هذا الحد فهل من الممكن أن يتسع قلبه إذا كان مولعا بنفسه إلى هذا الحد فهل من الممكن أن يتسع قلبه للوع بها ؟ . إذا كان قلبه متظلا بعشق اليوم ما يبعثه بالأس . ويحرق غذا ما ألع به اليوم . أن يصجر منها وبعضها بعد الزواج يوم . إذا كان يغير رأيه بسرعة الريح إلى يرب منها ليلة الحناء . أنتزوج رجلا له وجهان . واحد من نور والآخر من ظلمات . . . أنتزوج رجلا يتأقظ نفسه بنفسه وغنى عييك . . . أنتزوج رجلا يقول المرأة شيطان . اتق شرها قدر الإمكان المرأة مصدر كل الرذائل . فمن غيرها يدفعها إلى الخطيئة ويتبرأها الشهوات الجيمية . ويؤديها إلى الهيم . . . ومالت عليها . ولكنه قل أن يرد عليها صبره قلبا صلبة فاصية . فاعلى عليه وصرخ قلبا ملعلا . تزوجها بالظلم . . . هو يجلت جرد . وانت أيضا غيبه يجلت . ولو لم يكن عييك يجلت ويبن جرد . أنك صبر زوجة لما أعطى لك يومياته . فافق عليها . ويوشح . من قال لك أنه لم يعط لك اليوميات ليتخلص منك إلى الأبد . ويرتاح من هم وغم الحب وعمل ورق الزواج . ولكن قلبا مد الفبا . فلم تسع شيئا . ثم ضرب عليها من جديد فاعلى عليه من جديد ثم قال لها ملعلا من جديد . الحب يضع المعجزات

● العريس المذعور

وحده يوم ٢٣ سبتمبر ١٨٦٢ . والزوف حسب الاتفاق سيده ساء هذا اليوم في الساعة الثامنة في كنيسة العذارى في قصر الكرملين . إلى بعد خطوبتي عن بيت سونيا . وقبل الظهر تطلق طرق تولستوى باب شقة الكرملين . وسجرت العادة الألبور العريس عروسه يوم الزفاف . والأجل له . ولما الحبس وفوجئت سونيا بالأمد الورد بدخل عليها في حجرها . وملت . ماذا يسبق لها . . . والخجرة مقبولة راسا على عقب . وفوق السرير لسان الفرح . وفوق الكبة لسان الشرب . وفوق كل شر من أرض الحجره حطاب . وجلس تولستوى فوق حنية وسونيا إلى حواجز . وسبح عينيها بشاكر في عينا . واماها عليها بكرايخ أمثله . أهي واقفة من حب

له . . . التي تدم لأنها اختارته هو لا بوليفانوف أو غيره من المعجبين بها ؟ . . . لا تريد أن تزوجه ؟ . هذا حطها . وهو شخصيا لا يهتم كلام الناس . اللهم هو وحى وحياها معا . فمن الأفضل فتح الخطه على إتمام الزواج إن كانت لا تتوقع منه السعادة التي ترجوها . وظنت سونيا أنه يبحث عن حجة ليسحب كلمته ويهرب منها . وانفجرت بانبع الدموع . وبينا هو يخلف دموعها ويعتذر لها عن طونه السيئة . دخلت أم سونيا الخجرة . ورأت دموع ابنتها . وانفجرت في وجه الأسد الأرب . وهذا وقت مناسب لتعديها . اليوم زفافها ويجب أن تبدو في أوج جلالها . ماذا يسبق الناس حيا يرون عينيها المحمراوين وحطوها الوارمة . ألا يتجمل من نفسه ؟ وحصل الأسد من جبه . واعتذر . وطأها رأسه . وأحى كتفيه . وانسحب . وفي الساعة السادسة مساء بدأت سونيا تسعد لخال وأناقلة يوم العرس . وارتدت فستان الفرح . وفي وصية عين تحولت إلى سحابة من التل الرقراق المظف . وانتركت صديقاتها مع شقيقتيها في تصفيف شعرها . وتبيت الطرخة ووضع تاج من زهور البرتقال حول رأسها .

وحسب الظالم كان العريس أن يتوجه أولا إلى الكنيسة . ثم بمجرد وصوله يرسل وصيف الشرف إلى بيت العروس . فطير إليه . ودقت الساعة الثامنة . وتأنت الحباية العامة للظفران . ومرت ربع ساعة وتسمرت الحباية في مكانها . ثم مرت نصف ساعة وانحطت الحباية والفجر لل فسنا . ثم مرت ساعة وهبت عاصفة هوجاء في مساء فكرها . وانصهرت آخر غصن في شجرة أمها . ونذرت ما قاله لها في الصباح . وتسرب الشك إلى قلبها . وشيا فشيا تحول إلى يقين . وانكسر قلبها . لن يأتى . لقد هرب منها . وفورقت في عينا دمعان واحدة أرق من دمع العمام الأخرى أرق من دمع المسام . فحسبتها بشجاعه في مقبليا . حتى لا تنمو الدفعة إلى دموع والدموع إلى مطر يحرق بظله وطنه . ورذاذه وهطله . مساحيق وجهها . من بودة واحمر حدود وشاه . فهو يطلب كالريح بسرعة الريح . وروما يغير رأيه بعد دقيقة وينتبط بالزواج . وتنجري إليها . وموت دقيقة . ودقيقة ثانية . ودقيقة ثالثة . ودقيقة عاشرة . فطر هزام في مساء الساعة . ولع غرق عينا . إنه غرق الساعة . الساعة الآن التاسعة والصف . ورفت عينا اليسرى . فكست برمش عين آخر أمل لها . ثم فجأة ظهر الكيس خادم تولستوى . وسقط قلبا على الأرض عندما رأت وجهه المضطرب . ثم بسط قلبا أحماجه وزوف برح . عندما سمعه يقول إنه وهو بعد الخفاف السيل الكوت نسي أن يترك له ليضا نظفا . واليوم الأحد وكل الحلات مغلقة . وجميع حطاب الكوت عندهم . وفيح الخادم حطاب الكوت واحدة لئو الأخرى . وأخيرا غرق الحنية الواقعة على التقيص للشود . وطار به إلى العريس . ورفيت عن سونيا اليمنى . والفرحى وأبشرى بأعروس الزواج

سب . وبعد ساعة تقريبا وصل وصيف الشرف . الكوت في انتظار عروسه في الكنيسة . وهذه المرأة لم تسطيع سونيا أن تحبس دموعها فدموع الفرح خير وسيلة لتثيت ما كياج الفرح . وصعدت في عربة تجرها ستة خول بيضاء . وبعد دقائق كانت عند باب الكنيسة . وكان الأسد العصفير في انتظارها في بدلة سوداء يبر عن عضلاته الشديدة . ولحيص أيضا ياقة مشاة يخلق وحكام رفقة . فطقت بذراعه وفادته إلى حل المشقة . أسفة إلى المدح . مدبح الكنيسة لا السلخانة . وصلصت الأجراس . وحصلت قلبا . وتم الأهلاك . أسفة الإملاك . واصبحت سونيا الكونتيسة ليوك تولستوى . ثم بدأ شهر العمل ومعه أرب سافرة زوجية . ولكن هذه حكاية أخرى يقول شرحها ■